

□ الفصل السابع □

الأيدولوجيا

obeikandi.com

عند تناول علم الاجتماع السياسي لأيدولوجيا يؤكد أن هناك علاقة قوية بين مفاهيم كل من الأيدولوجيا والمشاركة السياسية والقوة، لأن الفهم الحقيقي للنظام الاجتماعي والسياسي على المستوى القومي والعالمي، لا يتحقق إلا من خلال البحث في دينامات الأيدولوجيا وسماتها العلمية والنظامية.

ظهر هذا المصطلح أول مرة، حين كتب «كونت دي تراس» عن دراسة الأفكار في نهاية القرن الثامن عشر، ثم مال بث أن كتب له الذبوع والانتشار بين الدارسين الفرنسيين إبان القرن التاسع عشر، ولكنه سرعان ما اكتسب معاني سلبية، فارتبط بأفكار ميتافيزيقية عقيمة ظلت عالقة به إلى فترة متأخرة.

من التعريفات التي عرفت بها الأيدولوجيا أولاً: بأنها نسق من المعتقدات والمفاهيم، يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منظور يوجه الاختيارات السياسية والاجتماعية للمواطنين أفراداً وجماعات.

كذلك عرفت بأنها نسق الأفكار المتداخلة التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما، عاكسة مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية، إضافة إلى السياسية والاقتصادية والنظامية. وتقوم الأيدولوجيا بمهمة التبريرات المنطقية لنماذج السلوك والاتجاهات والأهداف وأوضاع الحياة العامة السائدة، فأيدولوجية أى شعب تنطوى على تفسير، وإعادة صياغة إطار المرجعية الأيدولوجية البديلة. على أننا نجد من يرى أن عناصر الأيدولوجيا حقائق ومذاهب ثابتة، وليست جوانب فلسفية أو نظرية يمكن أن تتوافق مع كل تغير في الظروف الاجتماعية والثقافية.

وهى كذلك (أى الأيدولوجيا) عملية إنتاج المعاني والعلامات والقيم فى الحياة الاجتماعية، إلى جانب أنها أفكار تساعد على إضفاء الشرعية على القوة السياسية

المهيمنة، وهى الوسيط الأساسى الذى يجعل من خلاله الأفراد علاقاتهم حية داخل البناء الاجتماعى .

تعرض «كارل مانهايم» لمعالجة مفهوم الأيديولوجيا فى مؤلفه الأيديولوجيا واليوتوبيا وهى من المعالجات الهامة لهذا المصطلح . فقد نظر «مانهايم» إلى أنماط التفكير ونماذجه والقيم السياسية على أنها نتاج النظم الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه فى نفس الوقت تناول بالتحليل المنظمات التى تنتشر من خلالها الأفكار، فبالإضافة إلى «مانهايم» لا تنبثق من البناءات الاقتصادية والطبقية فقط، ولكنها أيضاً ترجع إلى خبرات الحياة ونماذج السلوك السائدة بين الجماعات الاجتماعية ذات الأنماط المتعددة . فنجده قد قام بكشف المعانى والدلالات المختلفة التى اكتسبها مصطلح الأيديولوجيا من خلال التحليل التاريخى والاجتماعى، حيث نجده يقول: «إن أى معالجة للأيديولوجيا يجب أن تفرق بين معنيين متميزين ومنفصلين للمصطلح هما المعنى الخاص والمعنى الكلى العام»، ويؤكد كذلك على أن كل الأنساق الفكرية التى تهدف بصورة رئيسية إلى الدفاع عن الوضع القائم، وإيجاد المبررات اللازمة لحماية مصالح الفئات الحاكمة تسمى أيديولوجيا، وهى أنظمة دفاعية<sup>(1)</sup> .

أما المعنى الخاص فهذا يتراوح ما بين الخداع النفسى والكذب الوجدانى، ولكنه ذو طبيعة نفسية، أى أن الفرد الذى يؤمن بالمعنى الخاص للأيديولوجيا يمكن أن يكون قادراً على التفكير بعدة أساليب أخرى، إذا كان راغباً فى رفض تحيزاته وتعصباته .

على ما يبدو لى أن المفهوم الخاص للأيديولوجيا يشير إلى الشكوك التى توجد لدينا دائماً إزاء الآراء والأفكار والتصورات التى يتقدم بها المعارضون لنا، وتؤدى بالضرورة إلى عدم القدرة على إدراك التعامل مع الواقع الاجتماعى إدراكاً متكاملأ . ويظهر الطابع المميز للمفهوم الخاص عندما يتناقض مع المفهوم الكلى للأيديولوجيا، وخاصة حينما يهتم بتركيب البناء الكلى للعقل بخصائصه فى مرحلة تاريخية معينة . إلا أنه عندما يشير المفهوم الخاص إلى جزء فقط من الأقوال التى يطلقها المعارض، فإن المفهوم الكلى يتناول المعرفة كلها ويعرّف المفاهيم ويحددها وفق منظور الحياة الاجتماعية .

1- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمد عودة وآخرين، مرجع سابق ذكره، ص 130 .

كذلك نجد عندما يقيم المفهوم الخاص تحليله للأفكار والآراء على مستوى نفسى يعزو المفهوم الكلى للآراء إلى مرحلة تاريخية، ويعمل المفهوم الخاص فى إطار نفسية المصالح. فى الوقت الذى يتجه فيه المفهوم العام إلى التحليل الوظيفى والوصف الموضوعى لتلك الفروق البنائية بين العقليات التى تعمل داخل مركبات اجتماعية مختلفة.

من هنا نجد أن من يتبنى المفهوم الخاص يرى أن المصالح هى السبب الكامن وراء تلك الأكذوبة أو الخداع، فى حين نجد أن المفهوم العام يفترض مسبقاً وجود نوع من التطابق بين وضع اجتماعى معين ووجهة نظر بالذات، فالمفهوم الأول بدايته الفرد حتى لو بدأنا بالفئة الاجتماعية، لأن كافة الظواهر النفسية يجب أن تعود إلى عقول الأفراد. كذلك فإن المفهوم الثانى يبدأ بإعادة بناء وجهة النظر الكلية للفئة الاجتماعية، أى أنها إعادة بناء الخلفية النظرية التى تأخذ مكانها وراء الأحكام الشخصية للأفراد، فتبرز من خلال ذلك المظاهر النفسية الجماعية للأيدولوجية.

وقد استخدم علماء الاجتماع السياسى الأيدولوجيا السياسية من خلال مجموعة من المفاهيم، فقد استخدمها «روبرت لين» ليعنى بها أولاً أنها تعالج مجموعة من التساؤلات، مثل: من هم الذين سيصبحون حكاماً؟ وكيف يتم اختيارهم؟ وماهى المبادئ التى سوف يستندون إليها فى ممارسة الحكم؟ فالأيدولوجيا باعتبارها مجموعة من المفاهيم تمثل نوعاً من الجدل أو الحوار بين وجهات نظر متعارضة، إلى جانب أنها تؤثر فى قيم الحياة الرئيسية، وكذلك تتضمن برنامجاً للدفاع عن النظم الاجتماعية الأساسية أو إصلاحها أو هدمها. كما أنها ذات طابع معيارى وأخلاقى على مستوى الشكل والمحتوى. فهى بالضرورة إذاً جزء من سياق أشمل يتضمن نسقاً من الاعتقاد، ومن ثمّ فالأيدولوجية السياسية تنطوى على الخصائص البنائية المميزة لهذا النسق.

وفى ضوء هذا يمكننا القول: إن الأيدولوجيا السياسية هى مجموعة من القيم الأساسية، ونماذج من المعرفة والإدراك التى ترتبط ببعضها بعضاً، وتنشأ بينها وبين

القوى الاجتماعية والاقتصادية صلات قوية. كما أن الأيديولوجيا السياسية تنصب أساساً على توزيع القوة السياسية وتعالج مسائل، مثل: شرعية السلطة وأسس القيادة وأشكال الحكم.

أما «ديفيد جيري» و«جوليا جيري» في مؤلفهما قاموس علم الاجتماع فنجدهما يستعرضان عدداً من التعريفات الخاصة بمفهوم الأيديولوجيا فيشيران إلى أنها أي نسق من الأفكار يحدد الفعل السلوكي المجتمعي والسياسي، أي أنها نسق من الأفكار تبرر خضوع جماعة ما لجماعة أخرى، مع إضفاء شرعية على هذا الخضوع. فهى معرفة موسوعية شاملة، قادرة على تحطيم التمييز وذات قدرة على الاستخدام فى الاصطلاح الاجتماعى.

كما أننا نجدهما يؤكدان على أن أعمال كل من «ماركس» و«إنجلز» قد أثرت فى تطور النظرية الأيديولوجية. فقد أكد كل من «كارل ماركس» و«إنجلز» على الآتى: أولاً: أن الأيديولوجيات قد عملت على خلق صورة العالم من خلال وجهة نظر الطبقة الحاكمة. أما الثانى: فهو أن هذه الصورة - أى صورة العالم - كانت بالضرورة صورة مشوهة، لأن مصالح الطبقة الحاكمة بالتحديد مصالح جزئية، لأنها لاتمثل مصالح الإنسانية على وجه العموم. على أية حال من خلال ماتعرضت له مسألة الأيديولوجيا حديثاً من انتقادات وما صاحب الفكر المرتبط بها من تطور، فالتعامل مع هذا المصطلح فى ضوء الطبقة الحاكمة الممثلة لمصالحها الجزئية كأمر طبيعى من ناحية، وكمسألة تتصف بالعمومية من ناحية أخرى.

هنا أود أن اعرض لما أكده «إيجلتون» من أن مفهوم الأيديولوجية هو، فى الأصل، كان يعنى الدراسة العلمية للأفكار الإنسانية. غير أنه قد طرأ تحول مصطلح أيديولوجى بحيث أصبح يعنى أنساق الأفكار نفسها. من هنا نجد أنه قد برز على أساس أنه يعنى بتحليل الأفكار وليس ذلك المدافع عنها والمؤيد لها فنجد أن القائم بدراسة الأيديولوجيا هو أصلاً فيلسوف هدفه السعى إلى الكشف المادى عن فكرنا، وهو يعتقد جازماً أن الأفكار أشياء مبهمة مستقلة عن الظروف الخارجية. كما أننا نجد أنه يؤكد أن مفهوم الأيديولوجيا فى الوقت المعاصر يتعارض تماماً مع العلم.

## استعمالات مفهوم الأيديولوجيا:

هناك العديد من الاستعمالات لهذا المفهوم فى الكتابات المعاصرة، فيستعمل هذا المفهوم أولاً: فى ميدان المناظرة السياسية. ومن الطبيعي أن نحدد هوية هذا الاستعمال هل هى سلبية أو إيجابية وذلك حسب معتقد وهوية المستعمل للمفهوم. فيرى المتكلم أن أيديولوجية تعبر عن الإيمان والتضحية والوفاء، فى حين نجده يرى فى أيديولوجية الآخرين أو الخصوم قناعاً يتسترون خلفه بنواياهم السيئة. على أن المتناول للأيديولوجية فى الحقل السياسى لايجب أن يحكم عليها من وجهة نظر الحق والباطل، وإنما عليه أن يتناولها من خلال النظر إلى فعاليتها فى استمالة الناس وتحقيقها لأهدافها.

أما مجال الاستعمال الثانى: فهو المجتمع حيث يتفق أعضاؤه على الولاء لقيم مشتركة ويستعملون منطقاً واحداً. فالأيديولوجية تحديد أفكار وأعمال الأفراد والجماعات بكيفية خفية. وعلى الباحث لكى يحدد مصالحها أن يقوم بتحليل وتأويل أعمال أولئك المعاصرين.

المجال الثالث: هو مجال الكائن، أى الإنسان المتعامل مع محيطه الطبيعي، ففى الاستعمال الماركسى نجد أنها تحدد الواقع والكائن. فنظرية التاريخ فى الفكر الماركسى لاتن فصل عن نظرية المعرفة والكائن.

الاستعمال الرابع: خليط من الاستعمالات السابقة، فعندما نحاول أن ندرس تأثير أى أيديولوجية على الفكر عموماً، فإن أول ما نقوم به هو البحث فى الحدود الموضوعية التى ترسم معالم ذلك الفكر. وهذه الحدود هى حدود الانتماء إلى الأيديولوجية السياسية وحدود الدور التاريخى الذى يمر به المجتمع ككل وحدود الإنسان فى محيطه الطبيعي<sup>(1)</sup>.

من هنا نستطيع القول: إن مفهوم الأيديولوجيا فى الغالب يحمل طابع الازدواج، فهو وصفى ونقدى ويتطلب دائماً مستويين، المستوى الذى نظن فيه أنها حقيقة

1- عبد الله العروى، مفهوم الأيديولوجيا، بيروت، المركز، 1993، ص 10.

مطابقة للواقع، والمستوى الذى نحكم فيه على أنها لاتعكس الواقع على وجهه الصحيح.

على أن الأيديولوجيا تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: وهو الأيديولوجيا الجزئية الذى يقتصر على الجوانب السيكولوجية الخالصة فى حين نجد أنها تركز على تصورات ومواقف هى مبعث الشكوك من ناحية الخصوم. ويبدو أن أغلب الأيديولوجيات فى صراع نظراً لما قد تبرزه الأفكار من تعارض، إذ إنها جميعاً تتصل بأجزاء محدودة ومتعارضة من الواقع الفكرى، فالكلمة تستخدم للإشارة إلى قطاع خاص من الفكر وليس الفكر كله، أى بمعنى أن الأيديولوجية تكون جزئية حين اقتصرها على مجموع الأفكار والاتجاهات الخاصة بجزء من الواقع الاجتماعى الكلى.

أما فيما يخص القسم الثانى من الأيديولوجيات: فهو يتصل بالجوانب الكلية التى هى من السعة بحيث تشمل مجموع التصورات والتيارات السائدة فى أى عصر من العصور التاريخية. فإذا كان المفهوم الجزئى للأيديولوجيا يستند إلى أصول سيكولوجية نفسية ويعتمد على مصادر نفعية، فإن الأيديولوجيا الكلية إنما تقوم على أسس منطقية وعقلية، مستندة على ما يميز اتجاهات التفكير الكلى السائد فى روح العصر.

ومع البدايات الأولى لتيار النزعة النفسية صدر المفهوم الجزئى للأيديولوجيا حين ارتبطت بتباشير الأيديولوجيات من البداية عند «نيقولا ميكافيللى» و«ديفيد هيوم»، مختلطة فى ذلك بالاتجاهات النفعية فى علم النفس، الأمر الذى فرض عليهما أن يطبقا مبادئ السيكولوجيا النفعية فى ميادين السياسة والاقتصاد، ومن هنا اتصلت الأيديولوجيا الجزئية اتصالاً وثيقاً بسيكولوجية المنفعة.

### المفهوم الماركسى للأيديولوجيا:

تولى الماركسية عناية خاصة لمعالجة موضوع الأيديولوجيا السياسية، والسبب فى ذلك يرجع إلى ما قدمه «ماركس» من تحليل للأيديولوجيا حينما عالج بناء المجتمع، وعدّها (أى الأيديولوجيا) الظاهرة المعبرة عن البناء الفوقى. إن المجتمع كما تصوره «ماركس» يعدّ شيئاً أكبر من الدولة، أى أنه حقيقة تاريخية بأكملها. الأمر الذى

جعل «ماركس» وأتباعه يستخدمون الجدل في تحليلهم للمجتمع الأوربي المعاصر، ففي هذا المجتمع يتمثل تنظيم الإنتاج الاجتماعى، الذى ترتب على الثورة الصناعية، فى وجود طبقتين: طبقة مالكة لوسائل الإنتاج (البرجوازية)، وطبقة العمال (البروليتاريا). والصراع أمر لا مفر منه بين هاتين الطبقتين، والذى سينتج عنه دمار النظام القائم. والنظام الاشتراكى، والرأى مازال رأيهم، هو وريث النظام الرأسمالى. فالنظام الاشتراكى يتميز بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، كما أنه مجتمع يتخلص نهائياً من الطبقات. بدأ «ماركس» تحليل العناصر المكوّنة للمجتمع من مفهوم الطبقة البشرية أى تصويره للإنسان، باعتباره - أى الإنسان - نقطة الانطلاق فنجد أنه يؤثر النظر إلى الإنسان فى ضوء مضمونه الثقافى، وهو ما يؤكد علم الاجتماع الحديث. إن «ماركس» و«إنجلز» يتصوران الإنسان على أنه حيوان واع. والمقصود بالوعى هنا هو وعى الإنسان بنفسه وبيئته، والعنصر الأساسى فى هذا الوعى هو وعى الإنسان بأن البيئة تقف فى عدااء معه، وينتج عن ذلك كونها حجر عثرة فى سبيل بقائه. هذا هو الذى يؤدى إلى الفرضية، ويتبلور كل من الوعى والفرض فى العمل الذى يهدف بدوره إلى استخلاص وسائل حفظ حياة الفرد والنوع من البيئة. صراع الإنسان مع بيئته صراع فى سبيل السيطرة على الطبيعة. وهذا ما تطلق عليه الماركسية الإنتاج، غير أن هذا الإنتاج لا يتم إلا داخل صورة معينة من صور المجتمع، فالإنتاج نشاط اجتماعى دائماً. وهناك العديد من الصور المختلفة للمجتمع ينشغل خلالها الأفراد بإنتاج متطلبات حياتهم. على هذا المنوال درس «ماركس» و«إنجلز» هذه الصور الميكانيكية التى ظهرت أثناء محاولة الإنسان للسيطرة على الطبيعة، وانتهيا فى ذلك إلى أن الناس أثناء عملية الإنتاج الاجتماعى يدخلون فى علاقات محدودة تتطابق مع قوى الإنتاج المادى بحيث تكوّن فى مجموعها البناء الاقتصادى.

كشفت «ماركس» و«إنجلز» عن مضمون كلمة أيديولوجيا، من زاوية تحديد الصلة الجوهرية التى تربط نشاط الإنسان بمعتقداته واتجاهاته وتؤكد على أفكاره وتصورات العامة. علماً بأن الاستعمالات الشائعة للأيديولوجيا هى أنها ذلك الإطار الفكرى المنسق الذى يدور حول حياة الإنسان ومجموعه وثقافته، كما أنها تطلق لتعنى مجموع

المعتقدات والنظريات التي تحدد لنا مضامين الفكر البرجوازي، وتستند إلى التركيز على أنماط وأساليب السلوك السائدة في حياة الطبقة البرجوازية<sup>(1)</sup>.

كما نجدهم يؤكدون على ربط الأيديولوجية بالوعي الزائف، فالأيديولوجيات في رأيهما تمثل صوراً من الوعي الزائف، وهي أفكار مضللة وأوهام ليس لها وجود حقيقي، كما أنها تقف في مواجهة النظريات العلمية.

إن الماركسية تفسر الأيديولوجيا السياسية تفسيراً سلبياً، وهو التفسير الذي ظل محتفظاً بدلالته في ميدان الاجتماع والسياسة، إذ إن التفكير المنوط بأيديولوجية ما هو إلا ذلك التفكير الذي يوصف بانعدام الصلة الوثيقة بينه وبين الواقع، لأن يصوغ نظاماً للمجتمع صياغة عقلية موضوعية معتمداً في ذلك على الأفكار المسبقة، ولا يلبث أن يعدّ هذا النظام ممكناً من الناحية الواقعية.

إن الأيديولوجيا الماركسية تزود القارئ بمادة خصبة للتأويلات المختلفة والمتعاقبة ولكنها لم تصل - وعلى الأرجح أنها لن تصل كذلك - إلى صورة تقريرية ترضى الجميع، لأنه في تحقيق ذلك يجعل من الماركسية معرفة مطلقة لاسبيل إلى تحليلها من الخارج. وعلماء الاجتماع الذي يستخدمون مفهوم الأيديولوجيا في دراساتهم يرفضون الارتباط بنظرية فلسفية غير قادرة على تقديم إجابات واضحة وقطعية.

### الاتجاه المحافظ للأيديولوجيا:

في البداية أود أن أعرض للتصورات المختلفة لهذا الاتجاه، والمتمثلة في:

أولاً: هناك النظرية الأرستقراطية التي تعرفها النزعة المحافظة بأنها أيديولوجية حركة تاريخية، تتمثل في ردة فعل واستجابة الطبقات الأرستقراطية للثورة الفرنسية، ثم نشأة البرجوازية في نهاية القرن التاسع عشر. فالنزعة المحافظة الحديثة كما يحددها «مانهايم» هي نتيجة مترتبة على موقف تاريخي اجتماعي واحد، والليبرالية هي أيديولوجية البرجوازية، والاشتراكية هي أيديولوجية البروليتاريا. أما النزعة المحافظة فهي أيديولوجية الأرستقراطية.

1- قبارى محمد إسماعيل، علم الاجتماع السياسي، مرجع سابق ذكره، ص 265.

ثانياً: هذا الاتجاه ينظر للنزعة المحافظة على أنها ليست بالضرورة مرتبطة بمصالح أية جماعة خاصة، ولم يكن ظهورها معتمداً على صورة تاريخية خاصة، فالنزعة المحافظة نسق مستقل من الأفكار يتسم بالصدق يمكن تناوله في ظل قيم سامية، مثل: العدالة والنظام والتوازن. أما ما يخص اعتقاد الأفراد في هذه القيم فإنه يعتمد بالدرجة الأولى على قدراتهم الشخصية التي تمكنهم من رؤية الجوانب الإيجابية لهذه المفاهيم وليس على انتماءاتهم فالمسألة إرادة وذكاء كما صورها «راسل كيرك».

ثالثاً: هذا الاتجاه ينظر إلى النزعة المحافظة باعتبارها تلك الأيديولوجية التي نشأت كاستجابة لموقف تاريخي معين ضد اتجاه أو مقابلة كانت موجهة نحو النظم القائمة، والذي بدوره أدى بأركان النظام إلى استخدام النسق من الأفكار المستخدمة في تبرير أي نظام مجتمعي قائم ضد أي تهديد لوجوده.

إن المتبع لخصائص الفكر المحافظ، على أية حال، يخرج بنتيجة، وهي أنها تخدم غرضاً واحداً هو تبرير النظام القائم على أساس التاريخ والدين والإنسان والطبيعة، ولقد كانت الأيديولوجية المحافظة هي النتاج الحقيقي للصراع الأيديولوجي والاجتماعي. وظهرت إلى الوجود حيث رفض أولئك الذين كانوا يقاومون النظم القائمة، والذي بدوره خلق فراغاً وهوة بين الذين يتمسكون بالقيم السائدة والأيديولوجيا المعبرة عنها، والذين يرفضون الحفاظ على هذه الأوضاع.

إن هناك العديد من المحاولات الحديثة لتفسير الأيديولوجيا السياسية، والتي جاءت معبرة عن الطابع الإمبريقي الذي يتجه نحوه علم الاجتماع السياسي وعلم السياسة المعاصر بخطى جادة وسريعة، إضافة إلى إدخال المتغيرات النفسية والاجتماعية في التحليل السياسي. هذا الاتجاه الحديث يعتمد في تناوله لتطور الأيديولوجيا واستمرارها على ذلك التصور الخاص بنموذج يعبر عن افتراض مؤقت حول الواقع الاجتماعي. وبناء على ذلك لا بد من وجود مستوى من الاستقرار تمتاز فيه الأيديولوجيا ومكوناتها بالتجانس والاعتماد المتبادل، إلى جانب وحدات التنظيم الاجتماعي المتحقق بينها نوع من الانسجام. هذه الأوضاع بصفة عامة تستند على القوى الفكرية السائدة والقيم الدينية والأفكار السياسية، وهذا بدوره ينتج مجتمعاً متوازناً.

إن المجتمع المتوازن هذا تسود فيه وتصبح القوى المؤدية إلى الاتساق الفكرى والمعنوى على درجة عالية من القوة، إلى جانب أن عمليات التنشئة الاجتماعية تسهم إلى حد كبير فى تشكيل المرجعية الخاصة بالأبناء واتجاهاتهم وأنماط سلوكهم، وتغدو الجماعة الأولية مسيطرة على مألديه من قيم وأنماط وعمليات معرفية. وفيما يخص اندماج الأفراد فى جماعات ثانوية فإن لاينتج عنه فى المجتمع المتوازن أى نوع من أنواع الخلل، بل يسهم فى زيادة إدراك الفرد ودعمه. من هنا نجد مدركات الفرد الواقعية ونسق القيم الذى يؤمن به فى حالة تجانس يدعمها نظام سياسى معين وقيم أخلاقية متعارف عليها، وهذه الظروف مجتمعة تعمل على تشجيع الاتجاهات القوية نحو تراتب المنظور السياسى والقيم والاتجاهات المتبادلة بين الأفراد.

إن التصور الخاص بالاستقرار الأيديولوجى ليس بالمنسجم كلياً مع الواقع، فالمتبع للأيديولوجيات يجدها تشهد عمليات نمو وتحول واختفاء وإعادة ظهور، وذلك وفقاً للمواقف الاجتماعية المختلفة، لأن المجتمعات على اختلاف أنواعها لاتستطيع أن تقاوم الأزمات التى قد تعصف بها من الداخل أو الخارج، وهذه الأزمات تتخذ صوراً مختلفة، مثل: التغيرات البعيدة المدى التى يشهدها الأساس الاجتماعى والاقتصادى، وتلك التحولات التى تشمل وتطراً على علاقات المجتمع بالمجتمعات الأخرى، أو التغيرات التى قد تلحق الآراء والاتجاهات نتيجة لظهور مطالب جديدة، إلى جانب الانهيار التام الذى قد يتعرض له المجتمع نتيجة الكوارث الطبيعية والحروب.

فى نفس الوقت نجد من يقول: إن هناك أيديولوجية مسيطرة باستطاعتها أن تستوعب التغيرات التى تطراً على الاتجاهات والآراء، وتعدّها عابرة لاتحدث أى تغيير أو تعديل فى الأيديولوجية المسيطرة. ولكن فى المقابل ربما هذه الأيديولوجية المسيطرة نفسها تكون فى حالة اضطراب داخلى نتيجة لقوى اجتماعية أو نفسية، بحيث نجدها تستجيب مباشرة للمؤثرات الجديدة فينالها التعديل بطريقة أو بأخرى.

على العموم كل هذا مجرد افتراضات لا يتم حسمها إلا عن طريق البحث الإمبريقى الذى أصبح الآن لاغنى عنه فى ميدان دراسة السلوك والاتجاهات

السياسية، وهذا البحث الإمبريقي فى ميدان الأيديولوجيا يحتاج أولاً إلى اتخاذ مجموعة من التدابير الضرورية لتطوير نظرية الأيديولوجيا المستخدمة فى التحليل السياسى.

إن «جيمس بيرنز» يحدد هذه التدابير والخطوات على النحو التالى:

**أولاً:** صياغة تعريف للأيديولوجيا بحيث يكون صالحاً فى الدراسات الميدانية، ولا بد لهذا التعريف أن يكشف عن القوى المؤثرة فى الأيديولوجيا والعلاقة بينهما.

**ثانياً:** لا بد من تطبيق الأساليب والتقنيات فى دراستنا للاتجاهات السياسية من حيث النموذج والبناء.

**ثالثاً:** الاعتماد على وجود فهم واضح لدور القيادة فى عمليات استقرار وتغيير الأيديولوجيا.

**رابعاً:** لإيجاد نظرية متكاملة للأيديولوجيا يجب أن تحتوى على كافة القوى السياسية المؤثرة فى الأيديولوجيا، وذلك مثل النظريات الكلاسيكية التى صاغها كل من «ماركس»، «باريتو»، «مانهايم»، «لوكاتش» و«التوسيدزوميروال». هذه النظرية تعدّ مفيدة كأداة ملائمة لدراسة طائفة كبيرة من الظواهر الهامة كالبناء المعرفى والنظم السياسية والبناءات الخاصة بالقيادة التى تمارس تأثيراً فعالاً على الاتجاهات وأنماط السلوك.

### **الأيديولوجيا: الفعالية والتأثير**

هناك العديد من الاختلافات فى الآراء حول موضوع فعالية تأثير الأيديولوجيا خصوصاً بين متبعيها. وهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى اختلاف مفهوم الأيديولوجيا مما أدى إلى ظهور نظريات متعددة. فعند تناولها للفكر عند «هيغل» نجده يعده بمثابة الحقيقة الموضوعية والوجود الفعلى الأصلى. فى المقابل نجد أن «ماركس» لا يرى فى الفكرة هذه سوى صورة عقلية محضه. فالأفكار عند «ماركس» لا تنبعث إلا من خلال الواقع الاجتماعى المادى، وهذه الأفكار هى التى تعكس الواقع ووجوده فى وعى البشر. . فالأفكار على أية حال لا تستطيع أن تتجاوز حدود الوضع القائم.

على أن أى أيديولوجية تمتاز بالطابع العلمى فهى بالضرورة تنال اقتناع وقبول الناس، نظراً لأن العلم عند الناس يمثل ضمانه لتحقيق فكرة التقدم. إن الأيديولوجيات تحتاج إلى إقناع الناس بها حتى يكون مفعولها نافذاً. وهؤلاء

محتاجون إلى المؤسسات ووسائل القوة التي تكفل لهم إيجاد مساحة لأيديولوجيتهم في مجالات الحياة المختلفة. وهذا حسب اعتقادي مايمثل هدف وغاية كل أيديولوجية، والأيديولوجيا السياسية بالتحديد.

فالأيديولوجية التي تعتنقها الفئة المسيطرة في المجتمع تسعى دائماً إلى تبرير الوضع القائم ومحاولة المحافظة عليه، في أية مواجهة مع الأيديولوجيات الأخرى، أما تلك الأيديولوجية التي تسعى جاهدة لتغيير العلاقات المجتمعية والسياسية القائمة، فهي ترى أن هدفها هو إعادة توزيع لعلاقات السلطة والقوى السياسية. وإزاء هذين الاتجاهين ترى الأيديولوجية التقدمية أن هدفها هو إقامة نظام كلى جديد يشمل علم الإنسان المجتمعي، فهي تسعى لقلب العلاقات الاجتماعية القائمة. وفي المقابل نجد أن أية أيديولوجية لا تستطيع أن تصل إلى غاياتها مالم تتوافر لها الإرادات اللازمة لذلك، وهي الاستيلاء على السلطة وامتلاك مقاليد الأمور. فالأيديولوجيا كما يصورها بعض المفكرين تشتمل على عنصرين أساسيين، عنصر نظري وآخر عملي.. فالأيديولوجيا من الناحية النظرية تؤلف كلاً متسانداً ونظاماً من الأفكار والتبريرات التي تتناول الإنسان ومكانته في المجتمع.

ومن الناحية والعملية تحمل الأيديولوجيا أتباعها على نهج سلوك يعملون من خلاله على الوصول بتلك التبريرات إلى مجال التحقيق، فالدافع الذي يحرك الأفعال لتحقيق الهدف هو مايميز الأيديولوجيا السياسية عن النظرية الفلسفية، وموقفها التأملى المجرد من العالم والمجتمع.

وعندما نتناول تأثير وفعالية الأيديولوجيا نجد أن كل تفكيرنا قد انصب مباشرة على الأيديولوجيا السياسية. حيث تتضح الفاعلية في أجلى مظاهرها، ويغدو من اليسير معرفة الأدوات والتقنيات المستخدمة لإثبات تأثير أيديولوجيا معينة، كما أنه يتاح لنا معرفة طرق انتشارها وماهى متطلبات هذا الانتشار وذلك عن طريق استعارة الأدوات والمنظورات المستخدمة في علم الاجتماع والتاريخ.

فالأيديولوجيات يجب أن تتوافر لها بيئة مناسبة مستعدة لقبولها واستيعابها، أى أنها تحتاج إلى بشر كى تخاطبهم وأن يكون هؤلاء البشر مستجيبين وقابلين لهذه المخاطبة، هؤلاء يرون فى ماترسمه من تصورات أملاً فى المستقبل وتحقيقاً لرغباتهم وآمالهم الذاتية.. عندها فقط تكون الأيديولوجيا قد بلغت هدفها.

من خلال استعراض التاريخ يتبين لنا أن قوى الأفكار قد اهتمت فى كل العصور على نحو غير قابل للشك، بصنع ما يحدث فى المجتمع والسياسة، كما نتبين أن الأيديولوجيا تخلق لنفسها دائرة أعمق وأوسع مما تخلقه النظريات الفلسفية القائمة على التأمل.

### نهاية الأيديولوجيا:

إن قضية طرح الأيديولوجيات جانباً أصبحت من القضايا التى تتمتع بانتشار واسع، وهناك العديد من الدراسات التى تحاول فى مجملها التدليل على نهاية الأيديولوجيا. فنجد «ليش وريزمان ويب ورسميون ارون وميلز» من مؤيدى فكرة أو جدل نهاية الأيديولوجيا، وذلك للاعتبارات التالية: أولاً: أن السياسة الغربية لم تعد لها اليد الطولى على الأيديولوجيا الراهنة، بل هناك تغيرات أخرى دعمت الاتجاه السياسى. ثانياً: أن التقييم التقليدى لليسار واليمين قد تغير ولم يعد ذا أهمية. ثالثاً: أن الظواهر السياسية السائدة فى العالم اليوم هى تقليد غربى. وأخيراً هناك سيادة فى عالم اليوم لتعددية الثقافة والسياسة. لهذه الاسباب مجتمعة يؤيد بعض الباحثين الدعاوى بنهاية الأيديولوجيا<sup>(1)</sup>.

إلا أن وجهة النظر هذه وحسب اعتقادى تنطوى على عدم إدراك لأهمية الأيديولوجيا بالنسبة للحياة والعملية، فالأيديولوجيا تحتوى على التقييم السياسى والأخلاقى، أى تلك القوى الدافعة التى تصبح الحياة بدونها شبه مستحيلة. فالأيديولوجيا هى التى تزود الإنسان بالتوجيه الشامل لحياته وتوضح وتضع أمامه الأهداف والمهام، كما أنها تمدد بالدافع الذى يحقق الهدف وينجز المهمة.

\* \* \*

1- عاطف أحمد فؤاد، علم الاجتماع السياسى، مرجع سابق، ص 219.

obeikandi.com